والبشرية لقوى محور المقاومة، وتوريط كل الدول العربية القديمة أو الناشئة باتفاقيات مع «إسرائيل».

ـ خرجت بعض الدول العربية كالسعودية وقطر والإمارات بدور المحرّض على النظام السوري والداعم للجماعات المعارضة والمسلّحة على حد سواء، ورافضة لأي حلول سلمية وتسويات يمكن الوصول إليها من خلال التشجيع على الحوار والتفاهم بين الأطراف المتخاصمة. لقد اضطلعت هذه الدول بدور بعيد عن المسؤولية القومية، وبلغة بديلة وغريبة وعالية في نبرتها وسقوفها السياسية والعسكرية، حيث ظهر ذلك بوضوح منذ الأيام الأولى للأزمة من خلال مواقفها السياسية المتشددة ودعمها العسكري لمجموعات كانت هي بنفسها تعتبرها من متفرعات «القاعدة» (المنظمة المصنفة لديها إرهابية).

ـ ظهرت المعارضة السورية بمعظمها على هيئة انتلجنسيا متنافرة، مفككة، حشوية، لا كجماعة متجانسة، متماسكة، يمكن أن تفكّر كالحكماء وتتأمّل بهدوء لمعالجة الأزمة، بل كموظفين يمارسون مهنة التحريض والتحريف والتعبئة السلبية لعسكرة المظاهرات وصولاً لإسقاط النظام. وعلى نحو سريع برزت ارتباطاتها الخارجية وتماهيها مع مصالح الدول الداعمة لها، ومسؤوليتها في التغطية على مشروع تقسيم سورية وتأجيج الصراعات بين السوريين على أسس طائفية.

ـ تهشّم سريع للقيم الدينية وتفكك مخيف للأطر الاجتماعية، وسقوط للقواعد الفطرية الإنسانية، وانتهاك للمقدسات تحت حجج وذرائع واهية، وفي ظل فوضى غير مسبوقة في عملية صناعة الفتاوى التي تبيح الذبح والسبي ضمن أقيسة فقهية شديدة الغرابة بدأت تنتشر داخل المجموعات المسلحة التي أخذت تقلّد النموذج «القاعدي» وترقص على إيقاعه وتتقاطع مع أولوياته وأهدافه!

.وصول أعداد هائلة من الجماعات التكفيرية إلى سورية تتبنى منظومة عقائدية تقوم على أولوية قتل «الشيعة والعلويين والمسيحيين»، وهدم مساجدهم ودور عبادتهم ونهب ديارهم... ما أعاد إلى الذاكرة صورة المجازر التي وقعت مطلع القرن الرابع عشر الميلادي في منطقة كسروان (1305) بعد فتوى ابن تيمية التي أباح فيها دماء وأعراض الشيعة وعلى إثرها سميت المنطقة بـ«فتوح كسروان».

.الحرب في سورية بكل تفاعلاتها وتعقيداتها وملابساتها الداخلية والخارجية تشكل تهديداً مباشراً للمقاومة وجوداً ودوراً، وتشكّل تهديداً آخر للبنان كياناً ونموذجاً للتعايش بين المسلمين والمسيحيين وواحة للتفاعل الثقافي والتسامح الديني والانفتاح الحضاري. ومن المقطوع به أنّ الموجة الإرهابية التي تضرب سورية ستمتد إلى لبنان بفعل العوامل والتأثيرات الجيوثقافية والجيوسياسية والجيواقتصادية المتداخلة، والتي يمكن أن تعيد اللبنانيين إلى أجواء الحرب الأهلية أو أسوء منها.

ـ إسقاط النظام السوري ضربة قاسية لمحور المقاومة ومتغير كبير وخطير على موازين القوى التي نشأت بعد العام 2006. فالمقاومة، في حال سقوط النظام لن تحظى بمظلة أمنية إقليمية، وحليف يزوّدها بما تحتاجه في الصراع المفتوح ضد العدو الإسرائيلي، بل سيحدث تغيّر راديكالي هائل في العلاقة بين النظام الجديد وبين المقاومة، وهذا ما كشف عنه بعض أركان المعارضة برهان غليون، ما سينعكس حكماً على أدائها وسيكون من الصعب حينها الحفاظ حتى على التركيبة السياسية الداخلية والوضعية الأمنية اللبنانية التي سرعان ما ستنقلب لترفع من مستوى المخاطر والتحديات على المقاومة.

ـ في هذا المناخ المضطرب ظهرت أعراض التخبط وفقدان الاتجاه لدى الحكومة اللبنانية التي لم تحسن الموقف ولا التدبير في التعامل مع التطورات في سورية، وكذلك مع النشاط المتزايد لشخصيات سياسية ودينية ولمجموعات متشددة انخرطت في عمليات تهريب السلاح وتقديم الدعم اللوجستي وصولاً إلى المؤازرة البشرية ثم التخطيط لتحويل بعض المناطق اللبنانية إلى إمارات إسلامية تتبع في ولائها إلى أمراء في سورية أو العراق.

ـ إنّ المنطقة تحوّلت إلى ساحات صدام بين الدول الإقليمية والدولية في معركة نفوذ ومصالح جامحة، وبدأت معالم المنطقة السياسية والجغرافية تتغير على نحو هائل، وكرة النار تتدحرج بشكل سريع، والدولة اللبنانية عاجزة عن حماية الوطن ولا تملك ضماناً من أحد بعدم تمدد النيران السورية إليها، وليس لديها القدرة الكافية للسيطرة على هذا النمط من التوترات الداخلية التي تتغذى من صدام المصالح الجيوسياسية الخارجية إلا عبر تدخل المقاومة لمساعدة القوى الأمنية والجيش بنحو مباشر.

هذه الحقائق والاستنتاجات التي ذكرنا بعضها تشكل بمجموعها السياق المنطقي لتدّخل حزب الله في سورية والدور الذي لعبه في التطور المثير الذي نعيشه اليوم. لقد أفرزت هذه الحرب وما زالت تأثيرات مهمة على العلاقات والتوازنات الداخلية اللبنانية وعلى سياسات بعض الدول الإقليمية والدولية. وأدت المقاربات الواقعية وبمنطق الدفاع عن النفس إلى اقتناع مكونات لبنانية طائفية وحزبية وحتى جهات خارجية عربية وغربية بصوابية التدخل بناء على أحكام الجغرافيا وضرورات الأمن والمصالح. صحيح أنّ حزب الله لم يستشر احداً حين قرر الدخول إلى سورية كما لم يفعل ذلك حين انخرط في مواجهة العدو الإسرائيلي، ذلك أنّ أهوال الحرب وبشاعتها ومآسيها وارتداداتها في حالة الحرب ضد التكفيريين أو المحتلين الصهاينة أكبر من ملاحظات واعتراضات تصدر من هنا وهناك. الجماهير عندما تضغط عليها ظروف استثنائية وتشدّ أعصابها تحدّيات قاسية لا تعد تأبه لاعتبارات السلطة وكيفية صناعة القرار عبرها خصوصاً في بلد مثل لبنان الذي تُشكّل فيه طبقة السياسيين والزعماء التقليديين بنية محدودة القدرات ومحكومة في خياراتها لمصالحها الخاصة أو لداعميها من دول إقليمية أو غربية، بينما يمثل حزب الله حالة فريدة إن من جهة التركيبة الأيديولوجية والتنظيمية أو من جهة القدرات والخيارات التي جعلته شريكاً استراتيجياً أساسياً لدول إقليمية ولاعباً محورياً في معادلة التوازنات والخرائط والمصائر!

ملاحظة أخيرة: قد يقول قائل إنّ تغلغل البعد الديني في جهاز حزب الله الإدراكي هو الذي أطلق خيار الذهاب إلى سورية، وإنّ «الأطروحة المهدوية» تحديداً كانت أبرز محرّك لكسر قواعد وأحكام التاريخ والجغرافيا، وما راج عن «هلال شيعي» ليس إلا الترجمة لهذه الحقيقة التي ازدادت وضوحاً مع الحدث السوري. صحيح أنّ «الحلم المهدوي» يوفر مخزوناً هائلاً للوعي الغيبي الشيعي ووقوداً معنوياً في مواصلة الجهاد في ساحات قريبة أو بعيدة، ويجد كل من يدرس الثقافة الحزبية لمناصري حزب الله انعكاسها القوي على مستوى الواقع والتاريخ، لكن ما كان يحكم الدخول إلى سورية ليس الإسقاطات المهدوية وإن كانت جذورها ضاربة في عمق الأعماق، وإنّما الظروف والمتغيرات السياسية والاستراتيجية. الوضعية الجيو- سياسية للحزب دخلت في عملية تكامل مع القوتين الاقليميتين السورية والايرانية ليس في إطار التقاطعات الدينية والحدس المهدوي وإنما بسبب الرؤية العلمية والتحليل الاستراتيجي لمجمل التطورات التي يصعب على أي دولة أو قوة تجاهلها. أكثر من ذلك لقد كسر هذا التدخل بعض الصيغ المجازية وأعاد قراءة بعض النصوص في إطار فهم أوسع لحركة التاريخ وكيفية صناعته!

حزب الله اليوم قوة مركزية إقليمية، حقيقة علمية وسياسية لا يمكن نكرانها، تُلقي بثقلها في العلاقات والتوازنات الحالية. لقد شكل دخوله الحرب في سورية انتقالاً كبيراً من ساحة التأثير المحلي إلى ساحة التأثير الإقليمي، ومن قوة مقاومة للاحتلال الإسرائيلي إلى قوة محرّكة وصانعة للأحداث والتاريخ على مستوى المنطقة كلها.

* كاتب وأستاذ جامعي

اتضح باكراً أنّ الحراكات الشعبية توفّر المناخ الملائم لبروز التناقضات الطائفية والقومية

لم تطل المدة حتى بدأت الشعارات المنددة بحزب الله تبرز إلى العلن (الأناضول)

عن أي إسلام نتحدث؟ ولا أطرق هنا موضوع الطوائف الإسلامية بل الاتجاهات الفكرية الإسلامية: هل نتحدث مثلاً عن إسلام الإمام الخميني 1979؟ أم إسلام الأزهر 2000-2016؟ أم إسلام السعودية الوهابي (ما بعد مرحلة التأسيس الأولى)؟ أم إسلام الإخوان المسلمين (بعد وفاة المؤسس حسن البنّا)؟ كل هذه الاتجاهات تمثّل مدرسةً فكرية قائمة بحد ذاتها: فالخميني قدّم إسلاماً ثورياً أنتج دولةً حضارية هي إيران، وتجربةً تحررية هي حزب الله. إسلام الأزهر على الجانب الآخر -ولو أنّ كلامي لن يرضي أحداً- أنتج هدوءاً من خلال محاباته للحاكم، هذا الهدوء خلق -بشكلٍ أو بآخر- حالةً من الأمان الاجتماعي/السياسي/الديني في معظم الدول العربية. إسلام السعودية من جهته قدّم للمملكة دون غيرها ميزاتٍ لا تعد ولا تحصى، ففضلاً عن علاقته المثلى بالطفرات والهوامش الدينية، كانت لديه القدرة على فتح الباب الكبير أمام آل سعود لـ«تسيّد» العالم العربي، لا من خلال الأعطيات والأموال فحسب، بل من خلال «ترؤسه» كل التحركات الدينية المحتاجة «لقيادة» دينية/ روحية «حديثة/ قديمة» في آنٍ معاً من خلال ما سمي بالحالة «السلفية» (وإن كانت تتمايز عن حالة السلفية الجهادية لاحقاً). الإسلام الإخواني -وأيضاً لن يرضي الكلام أحداً- خلق دولةً ناجحة وعصرية (يمكنها التحوّل إلى ديكتاتورية بسرعة بالغة) في تركيا، فضلاً عن تجربة حزبية خاصة للغاية، استطاعت أن تسيطر على بلدٍ من أكبر وأهم البلاد العربية (مصر ولو أنها فشلت في المحافظة على مكاسبها لتسرعها)، و«سيطرةٍ» شبه تامة على قطاعٍ كبير من الوسط الفلسطيني ضمن الجنّاح المقاوم (حركة حماس). منطقياً لم تشعر معظم هذه الأيديولوجيات الإسلامية بالتشابه أو حتى بالرغبة في «التحالف» فيما بينها، بل بالعكس بادلت بعضها البعض الكره بكرهٍ أكبر والحقد بحقدٍ أكبر. ورغم أنّها «تعاونت» في بعض الفترات أو النقاط إلا أنّها أثبتت أنه «تحالف الضرورة» ليس إلا (يمكن مثلاً مراجعة موقف إيران الأخير أثناء حدوث الانقلاب على أردوغان مثلاً). نقطةٌ أخرى يجب الوقوف عندها كثيراً أن هذه الأيديولوجيات ليست أيديولوجية واحدة أبداً رغم أنّها من المصدر نفسه، وهنا نعود لفكرة أنه لم يعد مصدراً واحداً لأنّه لم تتم دراسته بشكلٍ دقيق كي يتم تحديد إذا ما زال مصدراً وأحداً فحسب أم عدّة مصادر متشعبة ومتعددة.

ولا بد من الإشارة إلى أنّ هذا الشرح المتناول لتلك الأيديولوجيات/ الاتجاهات لم يتحدّث عن «عيوبها» و«مساوئها» بل تناول «ميزاتها» إذ حتى اللحظة تمتلك جميعها «عيوباً» يمكن الحديث عنها مطوّلاً، لكن الأهمية ليست هناك البتة: الأهمية تكمن في أنّ «النبع» بات قابلاً للإفساد والتشويه وبسهولةٍ بالغة. لقد بات لزاماً أن يجلس الجميع -وأعني بذلك جميع الجميع- للوصول إلى «دراسةٍ» شبه منطقية حول الإسلام (ولا أعني هنا التباينات المذهبية والخلافات المستمرة، بل أعني البنية الأيديولوجية للفكر الديني الإسلامي ككل).

ساعتها يمكن ببساطة الإشارة -جمعياً- إلى أنّ هذه «الحركة الطفرية» أو «سواها» هي حركةٌ «مارقة» وبأن ما تفعله «لا يمت» إلى الدين بصلة، وإلى أنّ الإسلام فعلاً «براءٌ» منها. ساعتها يصبح الإسلام عصياً، والأمة التي يحويها قويةً منيعة، عندها ببساطة يمكننا رفع شعار: الإسلام هو الحل. وحسب.

* كاتب فلسطيني

يأتي السؤال الأكثر أهمية: عن أي إسلام نتحدث؟